المحاضرة الرابعة:

أعلام الفكر والثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني

اضطلع علماء الجزائر في العهد العثماني بأدوار مهمة في الحياة الثقافية والعلمية والدينية وشؤون الحياة العامة؛ من خلال المكانة التي تمتعوا بها عند الحكام والمحكومين، وتبوئهم مراتب ومنازل في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، ودورهم في دعم أركان الدولة ومساندة النظام، كما تميزت أيضا بالنفور من خلال استبعاد وتجاهل بعضهم، إن التاريخ السياسي للجزائر خلال العصور الحديثة تجاذبته قوتان متنافستان؛ فمن جهة رجال السياسة والذين استمدوا قوتهم من السلاح، ومن جهة ثانية جمهور العلماء (علماء، مرابطون، شيوخ زوايا) استمدوا مكانتهم من الشرعية الدينية. شارك علماء الجزائر خلال العهد العثماني الذين كانوا رجال دين وشرعية من خلال المراكز الدينية –العلمية والثقافية (المساجد والزوايا والمدارس) وحتى الاجتماعية (الحرف والمهن)، واضطلعوا بالأدوار الجهادية والأدوار التشريعية والقضائية كونهم حماة الدين ومصابيح الهدى، مما جعل بعض الكتاب والمؤرخين يصنفونهم في القسم الثاني من نظم الدولة بعد رجال الحكم والسياسة، دور وأثر العلماء في الأحداث الهامة خاصة ما يتعلق بتحرير البلاد واسترجاع وهران من الإسبان، واعتماد الحكام عليهم بدعم حكمهم، ودورهم أيضا في نهاية الحكم العثماني في الجزائر.

لم تكن فئة العلماء ظاهرة وليدة العهد العثماني ولا هي ميزة خاصة بها، وقد تشكّلت بالجزائر طبقة مميّزة، محترمة تقرب منها رجال السلطة بسبب قوة تأثيرهم على الأهالي وطبيعة العصر الديني الموسوم بالتصوف لذلك أصبح العلم والدين صّنوان يكمّل بعضهما الآخر، وحسب لغة العصر فالعالم عليه أن يكون أولا فقيها في دينه قبل أمور دنياه. وهنا نستخلص أن فئة العلماء هي رجال الدين أو رجال الشريعة ورجال القضاء والتعليم ورؤساء الطرق الصوفية ونقابة الأشراف. وكان رجال الدين هم العلماء بحق فكل محدث أو فقيه أو مفسّر يعد في نظر العامة "عالما".

وقد صنف أبو القاسم سعد الله العلماء خلال العهد العثماني ثلاثة أصناف: العلماء الموظفون، الفقهاء المستقلون لا صلة لهم بالتصوف، العلماء المتصوفة، المتصوفة دعاة العلم والولاية (المرابطون)، هذا من الناحية العلمية.

أما من الناحية الوظيفية فهم طبقتين: الطبقة الرسمية التي تشمل القضاة، المفتون، المدرسون، ثم الطبقة الملحقة بها من رجال الزوايا والمتصوفة وسلالة الأشراف المنحدرة من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم وهم على شكل مجموعات تحت رئاسة" نقيب الأشراف (وهو بمثابة الحاكم الثاني للمدينة، ويختار من بين الأسر الشريفة وواجبه كلما حدث أمر هام يجتمع في بيته مع شيخ البلد وباقي الأمناء.

وحتى في السُلَم الاجتماعي اعتبرت طبقة العلماء في المدن من طبقة الحضر، حيث احتلت المرتبة الثالثة في المجتمع الجزائري بعد العثمانيين والكراغلة، ورغم عدم توليها للمناصب السياسية لعبت دور الوسيط بين الحاكم والمحكوم.

1- علاقة العلماء بالسلطة:

رغم أن العديد من الكتابات وصفت الحالة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني الضعف، إلا أننا نجد بعض العلماء الجزائريين برزوا في مختلف العلوم النقلية، أو العقلية، وكانوا مثالا لغزارة العلم، ورغم العلاقات العلمية بين العلماء، إلا أنه كان يحدث التنافس بين العلماء من أجل الحصول على الوظائف العلمية والدينية.

لقد كانت العلاقة بين السلطة العثمانية في الجزائر وعلماء الجزائر تخضع لمنطق المصلحة، فقد تعاملت معهم في بداية العهد العثماني وتقربت منهم قصد تثبيت وجودها في الجزائر والاستفادة منهم ومن نفوذهم وسلطتهم الروحية والعلمية على الأهالي، حيث بدأت تلك العلاقة مع أول وفد جزائري زار الدولة العثمانية في سنة 1519م، وقال السلطان سليم الأول، حيث ترأسه علماء مدينة الجزائر. لقد ساهم العلماء والفقهاء الذين قربتهم السلطة العثمانية، في إخماد العديد من الثورات المعارضة للعثمانيين، كما ساهموا في إقناع بعض القبائل لكسب الولاء للعثمانيين، وفي المقال منحت السلطة العثمانية لهؤلاء العلماء وظائف وامتيازات.

وفي المقابل تعرض الكثير من العلماء إلى النفي والعزل والتنكيل بسبب معارضتهم للسلطة العثمانية، في حين نجد بعض العلماء مثل: المليانى، وأبو راس الناصري قربتهم السلطة العثمانية. وبذلك اختلفت علاقة العلماء السلطة العثمانية. حسب قربهم من الدولة العثمانية، وحسب فترات حكم العثمانيين، وحالة البلاد والظروف التي مرت بها.

محاضرات مقياس تاريخ الجزائر الثقافي 2

2–المناصب والوظائف التي تولاها العلماء:

أ–الإفتاء:

تعتبر الفتوى أعلى وظيفة يتولاها العالم، ذلك أنها تحتاج العلم الغزير والتعمّق في مسائل الفقه وعلوم القرآن وعلوم الحديث إلى جانب القياس والنزاهة والصلاح والشجاعة في الرأي، وعرفت الجزائر–كغيرها من البلاد المغرب الإسلامي– أن العلماء كانوا يستشارون في جميع شؤون الحياة وفي الأمور المستجدّة على السكان وهذا ما يعرف بالنوازل وذلك كشيوخ وفقهاء؛ وتتوافد عليهم الأسئلة من كل الجهات فيسجّلها عنده ويجيب عليها أو يمتنع بما توصّل إليه علمه مضيفا إليها عبارة" الله أعلم". وهذا ما عرف عن علماء الجزائر قبل مجيء العثمانيين من خلال نوازل" الدرر المكنونة في نوازل مازونة" للمازوني، المعيار المعرّب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقيا والأندلس والمغرب للونشريسي والمذهب الذي كان يفتي به هؤلاء العلماء هو مذهب الإمام مالك لأنه مذهب غالبية السكان.

وقد أحدث العثمانيون بعد مجيئهم للجزائر تغييرا جذّريا بنظام الحكم والقضاء وخاصة في مجال الفتوى التي جعلوا منها وظيفة رسمية وعلى مذهبين المالكي والحنفي الذي أصبح في ظل الحكام الجدد المذهب الرسمي الذي أصبح يسمى" شيخ الإسلام"، كما كان يسمى زميله في إسطنبول، وبذلك أصبح العثمانيون يجلبون معهم علماءهم من إسطنبول نظرا لعدم وجود علماء أحناف في الجزائر قبل وجود العثمانيين وكذلك لعدم الثقة الكاملة سياسيا في علماء الجزائر.

ب–القضاء:

أوجد منصب القاضي الحنفي وهي في الأساس وظيفة دينية – سياسية، وأصبح أيضا قاضيان في كل مدينة رئيسية، أحدهما للمذهب الحنفي والثاني للمذهب المالكي، وتحت هاذين القاضيين مجموعة من القضاة المنتشرين في أنحاء الأقاليم، وكان منصب القضاء مجالا خصبّا للتّنافس بين العلماء لأنه يجلب النفوذ والجّاه ومال الأوقاف، وهذا التّنافس كان سببا في تفشي ظاهرة العلماء الجاهلين لأحكام الدين والشّرع وإصدار الأحكام جزافا.

ج–التدريس:

كان التدريس أقل المناصب تنافسا بين العلماء، باعتبارها من الوظائف العامة لهم، وكان تعيين العلماء والمدرسين في الوظائف التعليمية لا يخضع لإرادة الحكام، وقد ارتبطت بوظائف أخرى كالمفتي

والخطيب، كان المفتي يتولى الإمامة والخطابة والتدريس، في حين لا يمكن للمدرس أن يكون مفتيا ولا خطيبا، تقتصر مهمته على التدريس فقط، ويمكن أن نصف النوعين من المدرسين معلمو المدن ومعلمو الأرياف والفرق بينهم في التصنيف والدرجة؛ فمن يدرس الشباب هو أستاذ وشيخ ومن يدرس الفتيان هو معلم أو مدرس ومن يدرس الأطفال فهو مؤدب، وهو الذي يتم اختياره من قبل سكان الحي بالمدن، في حين يقوم سكان الريف والدوار باختيار مؤدب الصغار. أما في مسالة تعيين المدرس فيتم تعيينه من قبل الباشا أو خليفته، أما في البايليكات فيتم تعيينه من قبل الباي أو حاكم الدار، أما في الريف فيختار من قبل شيخ القبيلة، كما وجد من عرف بالمعلمين الزائرين وهم الذين لا يتقاضون أجرا، وهذا ما كان يفعله "الورتلاني" حينما يزور بجاية كل عام خلال شهر رمضان، وهناك كثيرا من علماء الجزائر خلال العهد العثماني اشتهروا بالتدريس، وفضلوه على باقي الوظائف، فقد عرف "أبو الرأس الناصري" بطريقة تدريسه وفصاحة لسانه وإلمامه الواسع بالمواضع التي يعالجها، مكرسا حياته في التأليف والتدريس لمدة تزيد عن 36 سنة بلا انقطاع، مع تولي مناصب ومهام أخرى منها الفتوى والقضاء والخطابة، وهذا "سعيد المقري" كرس حياته في التدريس وخرج مجموعة من تلاميذ مثل ابن أخيه "أحمد المقري"، و"سعيد قدورة"، واشتهرت أسرة "سعيد قدورة" وأبناؤه بالتدريس، خاصة محمد الذي عرف بفصاحة لسانه وكثرة علومه، ويعتبر "عمر بن محمد الكماد القسنطيني "المعروف "بالوزان"، و"أحمد بن عمار" من الذين كرسوا حياتهم للتدريس ورفض تولي منصب القضاء والتقرب من الحكام.

3-نماذج عن أعلام الفكر والثقافة خلال العهد العثماني:

-أحمد البوني:

هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد ساسي التميمي البوني، وُلد ببونة المعروفة الآن بعنابة في شرقي الجزائر سنة (1063هـ/1653م)، وتوفي فيها سنة 1139هـ/1726م). نشأ في أسرة ميسورة الحال، فقد كانت عائلتُه تنتمي إلى مجموعة بشرية واسعة مُمتدّة غربًا إلى نواحي قسنطينة، وشرقا إلى نواحي الكاف وباجة، حيث أخذ أحمد بن قاسم العلم من هذه النواحي.

وفي بونة بدأ تعلّمه على يد والده قاسم، وجدّه محمد ساسي، والإمام الشيخ إبراهيم بن التومي (سيدي إبراهيم)، وغيرهم، ثم واصل دراسته متنقّلاً بين المغرب الأقصى وتونس، كما رحل إلى المشرق العربي، وأخذ بمصر عن الشيخ عبد الباقي الزرقاني المتوفى سنة 1688م، والشيخ يحي الشاوي المليانى بعد عودته من الحج، وتصدّره للإقراء بالأزهر الشريف، وغيرهما، ثم عاد إلى بونة مسقط رأسه وتفرغ للتدريس

والتأليف والافتاء، وقد كان المرجع في الفتوى آنذاك في مدينة بونة وقسنطينة ونواحيها، ورسالته "الإعانة ببعض مسائل الحضانة" أكبر دليل على ذلك. وقد أخذ عنه مجموعة من العلماء، منهم: عبد الرحمن الجامعي، وعبد القادر الراشدي القسنطيني، ...الخ، وكان من كبار فقهاء المالكية، وعالما بالحديث وله مؤلفات كثيرة، حيث بلغت مصنفاته نحو 100 كتاب ما بين مختصر ومسهب حسب ما ورد في كتابه "التعريف ما للفقير من التأليف" الذي عدَّدَ فيه أسماء مؤلفاته، وقد نشر الحفناوي قائمة لتلك التآليف في كتابه "تعريف الخلف برجال السلف"، إلاّ أنَّ الأستاذ سعيد دحماني، ذكر أثناء ترجمته للشيخ أحمد بن قاسم البوني، أنَّ تآليفه بلغت زهاء 175 عنوانا، معظمُها منظومة في قالب "أراجيز" مواضيعها تتعلق بالحديث والسنة والقرآن.

-أحمد المقري:

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقري التلمساني.

ينحدر المقري من أسرة علمية عريقة، جده أبو عبد الله المقري الكبير، صاحب كتاب "القواعد" و"الكليات الفقهية"، وكذا كتاب "المحاضرات"، وهو شيخ "لسان الدين بن الخطيب"، وأستاذ العلامة عبد الرحمن بن خلدون.

وُلد المقَرِّي سنة 986هـ/1580م بمدينة تلمسان حيث نشأ وترعرع، أوخذ العلم عن شيوخها وعلمائها وأدبائها. حفظ المقري القرآن الكريم بمسقط رأسه تلمسان، وطلب العلم وتلقاه من أفواه من بقي بها من العلماء والفقهاء والأدباء، معتكفا على دراسة العلوم الدينية، واللغوية والأدبية، وكان عمدته في التعلم والتأدب عمه أبو عثمان سعيد المقري مفتي تلمسان وكبير مشيختها، كما درسه صحيح البخاري وروى عنه كتب الحديث الستة. وعندما بلغ أشده شجعه على الرحلة إلى بلاد المغرب أين سيجد ضالته المعرفية ويلتقي بفطاحل العلماء والأدباء فيستجيز منهم ويجيزهم.

جلس المقَرِّي إلى ثلَة من شيوخ من المغرب والمشرق، أخذ عنهم العلوم والمعارف في شتى العلوم والفنون، وقد ناظر وناقش بعضهم، فبهرهم بعلمه وذكائه وفطنته، بل وانتصر عليهم في مواطن كثيرة، كما أنهم أجازوه.

لقد قام المقري خلال رحلاته المتعددة في المشرق وفي المغرب في الجزائر وفي القرويين بالمغرب، وفي الأزهر بمصر، وفي مكة والمدينة، وفي جامع الأمويين بدمشق، وفي غزة بفلسطين، بتدريس عدد كبير من الطلبة الذين انهالوا عليه مشرقا ومغربا. وشغل منصب الإفتاء والإمامة والخطابة بجامع القرويين.

بلغ المقري منزلة عالية في شتى العلوم والفنون، حيث درّس وألف في تفسير القرآن وعلومه، وروى الحديث النبوي الشريف من مختلف الكتب المعتمدة عند أهل السنة والجماعة، كما كتب في السيرة النبوية الشريفة، وفي الفقه، وفي النحو والتاريخ والمنطق، واللغة والأدب وغيرها من المجالات الأخرى. والدليل على ذلك تهافت طلاب العلم من مختلف الأقطار على مجالس علمه، وتزاحمهم في حلقات تدريسه، وقد درس على يديه خلقٌ كثيرٌ من طلاب العلوم اللغوية والشرعية، حيث أجاز العديد منهم في الأمصار التي أقام ودرّس بها.

كما نهل المقري من روض التصوف، وطريقته في التصوف هي طريقة أبي الحسن الشاذلي المعروفة بالطريقة الشاذلية التي كانت منتشرة في إفريقيا الشمالية، خاصة في المغرب الأقصى.

لقد تبوأ المقري بفضل علمه منزلة عالية ودرجة رفيعة في شتى أقطار العالم الإسلامي آنذاك، حيث كان موقرا مبجّلا في الجزائر، ومحبوبا من العلماء والعامة على حد سواء، أما في المغرب الأقصى فقد لقيَ المقري ما هو حري بأمثاله من التقدير والاحترام، وفي تونس استقبله علماؤها بالهدايا والترحاب والتعظيم والتبجيل، ووصل إلى القاهرة بعد أن شاعت سمعته العلمية في المغرب، ممّا مكنَه من احتلال مكانة مرموقة في الوسط العلمي والأدبي هناك.

توفي المقري بعيدا عن وطنه، حيث مات بأرض الكنانة مصر عام 1041هـ/1632م. وترك العديد من المؤلفات نذكر منها: كتاب "إعراب القرآن"، "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، "روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيتهم من أعلام الحضرتين مراكش وفاس"، "أزهار الرياض في أخبار عياض، وما يناسبها مما يحصل به للنفس وللعقل ارتياح.

– الشيخ يحيى الشاوي المليانى:

هو يحي بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى أبو زكريا النائلي ولد بمدينة بمليانة، والنائلي نسبة إلى قبيلة أولاد نائل بالقطر الجزائري، غير أن المصادر التاريخية لم تشر إلى تاريخ ميلاده بالتحديد، فأشاروا إلى أن مولده كان في أوائل القرن 11هـ، وهناك من أكد أن مولده كان سنة 1030هـ/1619م". تلقى

الشاوي تعليمه الأولي في مسقط رأسه مليانة وحفظ فيها القرءان الكريم وبعض المتون وتعلم مبادئ اللغة العربية وعلومها، ثم انتقل إلى زاوية بهلول المجاجي التي كان يقصدها الطلاب للدراسة الثانوية، فتلقى فيها الشاوي عدة علوم عقلية ونقلية على يد شيخ الزاوية محمد السعدي بن بهلول وحاز على إجازتين علميتين منه، ثم توجه إلى تلمسان وأخذ مختلف العلوم على يد علمائها ، ثم انتقل إلى مدينة الجزائر، حيث قرأ على يد شيوخها مثل الشيخ سعيد قدورة مفتي الجزائر والشيخ علي بن عبد الواحد الأنصاري وغيرهم، وروى عنهم الحديث والفقه وغيره من العلوم وأجازه شيوخه، ومن شيوخه أيضا عيسى الثعالبي، حيث ذكر المحبي أن الشاوي سار معه نحو ثمانية مراحل حتى أكمل قراءته عليه في علم المنطق أثناء رحلة الثعالبي للمشرق، وبعد تحصيله لمختلف العلوم صار يحي الشاوي شخصية علمية بارزة في مدينة الجزائر في فترة ما بين 1064-1074هـ/ 1654- 1663م، فتصدر للتدريس وعقد مجالس للحديث والقراءة وشرح الكتب الستة، واشتهرت مجالسه وانتفع به خلق كثير من الطلبة في مدينة الجزائر لقد قرر الشاوي مغادرة الجزائر نحو المشرق للاستزادة وطلب العلم فرحل عن الجزائر سنة 1074هـ/1663م، قاصد بيت الله الحرام فأدي فريضة الحج ولما قضى حجه، رجع إلى القاهرة واستوطن بها في نفس السنة، واجتمع في القاهرة بفضلائها وعلمائها وروى عن علمائها كالشيخ سلطان المزاحي، والشمس البابلي والنور الشبراملسي وأجازه بمروياتهم كما اخذ الشاوي عن الشيخ خير الدين الرملية، وأجازه حيث أتصل به الشاوي عندما كان متوجه إلى الروم (يقصد بها القسطنطينية).

وفي القاهرة جلس للتدريس بالأزهر الشريف، واستمر على التدريس مدة، فدرس مختصر خليل وشرح الألفية للمرادي وعقائد الشيخ السنوسي وشروحه وشرح الجمل للخونجي لابن عرفة في منطق، ثم بعد مدة تولى بمصر التدريس بالمدرسة الشرفية والسليمانية، كما تولى القضاء المالكي بمصر وتقلد إمارة ركب الحج المغربي مرتين.

ومن مصر زار الشاوي بلاد الشام مرتين في طريقه إلى الباب العالي وكانت الزيارة الأولي سنة 1081هـ والثانية كانت 1089هـ/1678م، وأما سبب زيارته الأولى فيذكرها مقديش، كما يذكر أن السلطان العثماني أن السلطان العثماني قد ولاه مشيخة الجامع الأزهر فكان كذلك إلى وفاته، إلا أن هذه الرواية ضعفتها الكثير من المصادر التاريخية. وخلال هذه الزيارات حظي الشيخ يحي الشاوي بتقدير أهل السلطة في استانبول، فقربه المفتي وشيخ الإسلام يحي المنقاري والصدر الأعظم كما حضر مجلس درس السلطان العثماني ونال إكرامه، ويظهر أن الشيخ يحي الشاوي قد فقد في السنوات الأخيرة من إقامته في المشرق الحظوة التي نالها حيث أنقلب عليه أهل مصر، كما أنقلب عليه رجال الدولة الذين قربوه أول الأمر

وكان ذلك حوالي سنة 1090هـ/1677م، فرفعت عنه وظائفه ومنها التدريس، وهذا يعود لعدة أسباب منها اكتسابه لعداوة بعض العلماء، وأخذه لوظائف بعض العلماء الآخرين، وكذلك انتقاده للمتصوفة والفلاسفة ودخوله معهم في الجدال والمهاترات، وقد ذكرها في بعض إجازاته إن استقرار الأحداث ومعرفة طبيعة تحركات الشيخ يحي المليانى ترجح فريضة تنقله للشرق الجزائري، طالبا العلم محتكا بالعلماء، إن كنا لحد الآن لم نملك ما يثبت هذه الفرضية، إلا أن عبد الرحمان الجيلالي صاحب كتاب تاريخ الجزائر العام ذكر انه عرج على قسنطينة في طريقه نحو المشرق العربي سنة 1074هـ/ 1663م، وكانت له وقفة فقهية مع عالمها بركات بن باديس عندما سأله عن حكم أكل لحم الطرائد التي تصطاد بالبندقية، ولما بلغ شخينا النائلي سن 44 من عمره تحركت همته نحو المشرق العربي حيث الرفعة العلمية وفحول العلماء، وقبل هذا كله ما تهفو له النفوس المتعطشة إلى المدينة المنورة وقبر الرسول والكعبة المشرفة، وهو بذلك يخطو خطوة قدواته من العلماء الجزائريين أما الشيخ الشاوي المليانى فقد شد الرحال سنة 1074هـ/ 1663م إلى المشرق العربي وقد كانت نيته الأولى أداء فريضة الحج، ويذكر العياشي أنه التقى به سنة 1074هـ/1663م بالإسكندرية وكان معه أهله، وبعد انقضاء موسم الحج قفل راجعا إلى مصر، وفي هذه المرة يريد الاستزادة من العلم، ونيل إجازة العلماء كما فعل أسلافه، وهناك قصد كبار العلماء وشيوخ العلماء كالبابلي والنور الشبرملسي والسلطان المزاجي، وقد أجازوه بمروياتهم، ولم يكن دارسا فحسب بل معلما ومدرسا، فقد اخذ عنه أهل مصر علوما شتى، كما اجتمع عليه طلبة المغاربة بالأزهر للتدريس، وذاع صيته وعلا شأنه عند المغاربة إلى أن توصل إلى أرباب الدول وتصدر للإقراء بالأزهر، وقد تميز الشاوي على سابقيه من علماء الجزائر بارتحاله إلى مقر الخلافة العثمانية، والتي كانت تعرف عند مؤرخينا باسم بلاد الروم.

وقد تبوأ يحي الشاوي مكانة علمية كبيرة بين علماء عصره حيث أشاد العلماء واعترف بقوة حافظته وتمكنه في مختلف العلوم، حيث قال عنه تلميذه أحمد بن القاسم البوني "كان يحفظ شرح التنائي الكبير وشرح الإمام بهرام الوسط وغيرها بل يحفظ ستين كتابا من الكتب الكبار كمختصر ابن عرفة الفقهي، وهو ستة إسفار كبار، وقد حفز القرءان الكريم وهو ابن ثماني سنين وأشتهر بالحفظ وحدة الذهن وجودة الإدراك، وقال عنه علي النوري السفاقسي فهرسته "أشعري الزمان وسيبويه الأوان."

ويقول عنه محمود مقديش كان يحي الشاوي رجلا بارعا في الأصول والفروع وآداب البحث والصناعات الخمس من علم النظر وعلوم العربية والحديث وتفسير وغير ذلك، وكان سريع الجواب حاد الذهن والفطنة يسلك من كل باب أراده، توفي على متن في سفينة بالبحر الأحمر سنة 1096هـ/ فيفري 1685م، وذكرت المصادر أن الملاحين أرادوا لقائه في البحر لبعد البر عنهم، فهبت عليهم ريح شديدة

قطعت شراع السفينة فقصدوا البر فدفنوه هناك، ولما وصل الخبر ابنه عيسى انتقل إلى المكان، ونقله لمقبرة القرافة الكبرى بتربة السادة المالكية التي كان قد رممها قبل ذلك، ولم يلبث ابنه عيسى حتى مات بعده بحوالي ستة أشهر ودفن بمقبرة القرافة الكبرى بالقاهرة.

ألف الشيخ الشاوي عدة مؤلفات شملت مختلف العلوم كالتوحيد والمنطق والنحو منها: حاشية على شرح أم البراهين (العقيدة الصغرى) للشيخ محمد السنوسي في عشرين كراسا، التحف الربانية في جواب الأسئلة اللمدانية في العقائد، وتوكيد العقد فما أخذه الله علينا من العهد على شرح أم البراهين، فتح المنان في الأجوبة الثمان، قرة العين في جمع البين، وهي رسالة في التوحيد، ارتقاء السيادة لحضرة شاه زادة، وهو كتاب أهداه الشاوي للسلطان محمد بن السلطان إبراهيم خان العثماني.

لقد استغرق سنوات في شرح الشروح وتحشية الحواشي، خاصة في الفقه والنحو، وأهم ما أشار إليه المؤرخون في هذا المجال حاشية على شرح الثنائي الكبير، حاشية على شرح الدماميني، حاشية على شرح عصام والكافية لابن الحاجب، شرح مقامات الحريري)106. فلقد ألف يحي المليانى ما يقارب العشرين مصنفا بالمشرق العربي، وكان فارسا لا يشق له غبار، وقد وصفه تلميذه العصامي إمام المعقول والمنقول، والفحل الذي لا يباري في فنون العلم وقد مثل الشيخ يحي المليانى منارة علمية وثقافية كبيرة أضاءت دروب المشرق خلال العقد الأخير من القرن 11هـ، وقد أثنى عليه العلماء في قرنه، وزيادة على ما سبق كانت له نشاطات علمية وثقافية بين مصر والشام والحجاز تمثلت في دروسه العلمية في المساجد والمناقشات الفلسفية والفتاوى والآراء الفقهية، بالإضافة إلى نماذج شعرية في بعض الفنون العلمية، كما كانت له اجتهادات شرعية خاصة في الفقه والعقيدة.

-سعيد المقري (928-1011هـ/1522-1603م):

ولد مع سقوط الحكم الزياني وبداية الحكم العثماني بتلمسان عم صاحب كتاب نفح الطيب، درس على يد شيوخ تلمسان، ثم تلقى تعليمه بفاس ليدس على أشهر مشايخها ومن بينهم عبد الواحد الونشريسي، ثم عاد في عام 966هـ ليتولى الفتوى لمدة 60 سنة وخطيب جامعها الكبير لمدة 45 سنة، إلى جانب التدريس فكان من العلماء الموسوعيين حيث برع في عدة علوم كالنحو والتوحيد والفقه والحديث واللغة العربية والمنطق والأصول وكان مهتم بالتاريخ والسير والشعر، ومولع بالطب والجراحة وغيرها من العلوم العقلية من حساب ومنطق وفرائض وهندسة، وصفه ابن مريم في البستان:" له باع في حديث البخاري وغيره، وكان علامة في التوحيد والفقه. أتقن كل علم، حافظا للغة العربية والشعر والأمثال. فنال

مكانة رفيعة بين علماء تلمسان، متفننا في تدريس مختلف العلوم، فكان يشد انتباه طلبته ليصل بهم إلى التحصيل العلمي. فشهرته جاءت من التدريس لا التأليف ومن تلامذته نذكر ابن جلال المغراوي التلمساني وسعيد قدورة وابن مريم التلمساني وأحمد المقري التلمساني ابنه اخيه وصاحب كتاب نفح الطيب، وعيس ى البطيوي، وابن جلال التلمساني، كما أجاز العديد من العلماء نذكر منهم ابن القاض ي صاحب كتاب جذوة الاقتباس. ورغم المدة التي قضاها في التدريس والفتوى إلا أننا لا نعرف أنه ترك تأليفا أو مختصرا.

-الشيخ أبو محمد عبد الكريم الفكون: 988-1073هـ/1580-1662م:

هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون التميمي، ولد عام 1580م بقسنطينة، حفظ القرآن الكريم وقرأ على شيوخ قسنطينة من بينهم الشيخ محمد التواتي ومحمد بن راشد الزواوي، ثم عكف على القراءة وحده في مكتبة العائلة الغنية. وقد أسندت له الإمامة والخطابة بالجامع الكبير خلفا لوالده محمد 1635عام، ثم عهد إليه بإمارة ركب الحج، فظل يتولاها إلى وفاته سنة 1662م. في المقابل فلقد تصدى للتدريس منذ صغره بإذن من والده، فكان مدرسا ناجحا في الجامع الكبير بقسنطينة وبزاوية عائلته، فكان يستقبل الطلبة من قسنطينة ومن مناطق أخرى وبالخصوص من بلاد زواوة ومدينة الجزائر وما حولها، ومن نواحي الزيبان وعنابة، ومعظم المواد التي كان يدرسها لطلابه هي النحو والتفسير والفقه، وعلم الكلام والرسالة وصحيح

البخاري.

ساهم الفكون في حركة التأليف فشملت الأدب والنحو والاجتماع والدين، ومن أبرز كتبه منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية.

-سعيدة قدورة: 973-1066هـ/1571-1656م:

تولت عائلة قدورة الإفتاء المالكي بالجامع الكبير بالعاصمة أكثر من قرن، ومؤسس الأسرة علميا هو الشيخ سعيد بن ابراهيم قدورة الذي تولى الإفتاء عام 1028هـ/1618م، واستمر فيه إلى وفاته 1066هـ/1656م، حصل اختلاف حول مكان ولادته بين قائل أنه ولد في تونس وقول آخر على أنه ولد في الجزائر، تلقى العلم على مشيخة مدينة الجزائر، وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن بلقاسم المطماطي، الذي كان مفتيا بالجامع الأعظم، وشهرته تعود إلى كونه مبرزا في العلوم النقلية والعقلية بالخصوص في علوم

الكلام والمنطق، وإلى جولاته العلمية الداخلية والخارجية، ثم تولى من بعده إبنه ثم أخاه، لعبت الأسرة أدوارا في الشؤون السياسية والعلمية والدينية، حيث تعاون أفرادها على خطط التدريس والإفتاء والخطابة والقضاء ونظارة الأوقاف.

بدأ طلبه للعلم بالجزائر العاصمة باعتبارها موئل للعلم والعلماء ثم التحق بزاوية الشيخ آبهلول المجاجي بالشلف وبعد مقتله واصل تعليمه على يد أخيه أبي علي الحسن وذلك ما بين (1596-1600م)، ثم عاد إلى الجزائر أين درس على يد الشيخ المطماطي مختصر خليل وابن الحاجب في الفقه والفرائض والتوحيد، ثم سافر إلى تلمسان سنة 1603م وتتلمذ على يد سعيد المقري التلمساني بالخصوص في العلوم العقلية كالحديث والمنطق والبيان وغيرها بالجامع الكبير بتلمسان، ثم سافر إلى الصحراء إلى فقيق وتافيلالت وسجلماسة ثم المغرب الأقصى، فزار فاس وبعد 7 سنوات عاد إلى الجزائر سنة 1610م، وبوفاة شيخه المطماطي بدأ نشاطه حيث تولى الإمامة بجامع البلاط والخطابة في جامع سيدي رمضان مع التدريس فيهما، وتولى الإفتاء سنة 1618م بعد عزل أحمد زروق بن عمار واستمر في المنصب إلى وفاته.

إلى جانب وظيفته المذكورة كان خطيبا ومدرسا بالجامع الأعظم حيث تعود شهرته إلى المدة الطويلة التي قضاها في التدريس بأهم مساجد الجزائر، كما شغل وكيل الأوقاف الجامع الكبير، وقد استطاع قدورة أن ينفق على الجامع وأن يوفر أموالا لشراء الكتب لمكتبة الجامع، كما شيد زاوية قرب الجامع (زاوية الجامع الكبير)، إلى وفاته ودفن في زاوية المرابط أحمد بن عبد الله الجزائري عند أقدام شيخه المطماطي.

بلغت قيمته العلمية عند الباشوات أنّهم كانوا يقفون له إجلالا ويقبلون يده، وكان الرأي العام منعقدا على أنه من العلماء الصالحين، وبلغ تقدير الباشوات وأهل الديوان أنهم كانوا يقدمونه على أن المفتي الحنفي (شيخ الإسلام) الذي كان يمثل المذهب الحاكم، كان يخلط العلم بالتصوف فكان يدرس لطلابه كتب ابن عطا الله وصحيح البخاري ورسالة القيراوني وسلم الأخضري وصغرى السنوسي.

ونظرا لشهرته شدت إليه الرحال من مناطق بعيدة كإقليم توات فأخذ عنه من مدينة الجزائر الشيخ عبد الكريم بن محمد التمنطيطي وابنه الشيخ البكري كما أخذ عنه بعض علماء المغرب الأقصى، ومن أشهرهم الشيخ محمد بن سليمان الروداني. ومن تلامذته عيسى الثعالبي الشهير بأسانيده في الحديث، ومحمد بن الكريم الجزائري قيل عنه أنه دائرة معارف الأدب والتاريخ، وابنيه محمد أبو عبد الله الذي انتهت إليه الخطابة والفتوى وكان بارزا في الفقه والعقائد والحديث، وابنه أحمد الذي تولى الافتاء بعد أخاه، وكذلك من تلامذته يحي الشاوي وعمر المانجلاتي.

فكانت مساهمة سعيد قدورة في الدرس لا في التأليف ولهذا كثر تلامذته وقلّ تأليفه، ومع ذلك نسبت إلى بعض التآليف لا تخرج عن الإملاءات التي كان يمليها على الطلاب بالجامع الكبير وجامع سيدي رمضان، فهي مختصرة وموضحة لبعض المسائل وهي بأقلام النسّاخ في الحديث والفقه والنحو والمنطق، وهي في حجم الكراس أهمها: شرح خطبة مختصر خليل في الفقه، حاشية على شرح اللقاني لخطبة خليل، شرح المنظومة الخزرجية في العروض، حاشية على شرح صغرى السنوسي.

كما كان شاعرا وله قصيدة في رثاء شيخه آبهلول المجاحي، وكانت له مراسلات مع علماء العصر وممن تراسل معهم في قسنطينة عبد الكريم الفكون فقال: "بيني ونينه محبة ورسائل"، فكان من أكبر القائمين على التدريس إذ يكفي في جدل أن يقال أنَّ المسألة رويت عن سعيد قدورة حتى يسكت المعارض ويصدق السائل، وكان يكفي في الطالب أن يقال عنه " قد درس عند سعيد قدورة أو أجازه.

-أحمد بن عمّار الجزائريّ:

هو أبو العبّاس أحمد بن عمّار الجزائري، المولود حوالي سنة (1119هـ- 1719م) بمدينة الجزائر، كان كثير التنقّل والترحال، فلم يكتف بالمكوث في بلدته الجزائر، التي نشأ بها، وتعلّم على أكابر شيوخها أمثال الشّيخ أحمد بن محمّد الورززي، والأديب أحمد بن علي الجزائري، بل إرتحل إلى الحجاز عام (1166هـ) ثم عاد إلى الجزائر، وتولّى منصب الفتوى على المذهب المالكي. ونبغ في علوم كثيرة، كالفقه والتفسير، كما أبدع في كتابة الشعر والنثر، حتى عرّفه معاصره ابن حمادوش بأنّه:" الأديب الأريب، ذو القلب النّاطق، والقول الصّادق". ووصفه الحفناوي بأنّه: كان من نوابغ عصره، وأفاضل مصره، وهبه الله حظا من سيلان القلم وطلاقة اللّسان.. وبديهة في البيان والمعاني.

- أبوراس الناصري المعسكري:

هو محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن ناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل المعسكري ويتصل هذا النسب بالشجرة الزكية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولقد عرف بحياته من خلال كتابه الذي يعتبر من أهم المصادر المحلية "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، احتل الشيخ مكانة مرموقة ضمن أنساب العرب، كما أرجعت بعض الكتابات ميلاده إلى عام (1150هـ/1737م) بمنطقة الراشدية بمعسكر بباليك الغرب، لم يتفق الباحثون في تحديد تاريخ وفاته؛ حيث ذكرت المصادر بأنه توفي بعدما تعرض لمرض الطاعون في عهد الباي العثماني حسن بن موسى عام (1238هـ/1823م).

عاش الشيخ أبو راس الناصري يتيماً، حيث فقد والدته منذ صغره وبفضل والده تعلم اللغة العربية وتتلمذ على يد كبار الشيوخ والفقهاء، كالشيخ محمد الفقيه المفتي، وعندما ارتحل إلى المغرب الأقصى تفقه في الدين وحفظ كتاب الله واستوعب آياته وأحكامه، ثم رجع إلى الجزائر حيث استقر بمنطقة القيطنة لدراسة العلوم الشرعية، ثم نهل من مدرسة مازونة شتى العلوم الدينية والدنيوية.

لما صقل موهبته عاد إلى معسكر وظل يلقي الدروس التي لقيت استحسان ودعم بايات بايلك الغرب، ليصبح شخصية علمية بارزة في بلاد المغارب والمشارق بفضل بداهته واتقانه ومعرفته للمذاهب الأربعة ورحلاته التي كانت كثيرة اقتداء بالرحالة الجزائريين الدين سبقوه كالعياشي وابن رشد وابن الخطيب.

بالإضافة إلى أنه اشتغل بالتعليم فقد تولى القضاء ثم الإفتاء، ومن أهم تآليف أبي راس الناصر في السير والتاريخ الخاص والعام والأخبار؛ مثل كتاب: درء الشقاوة في حروب درقاوة، زهرة الشماريخ في علم التاريخ، الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية وشروحها، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار.